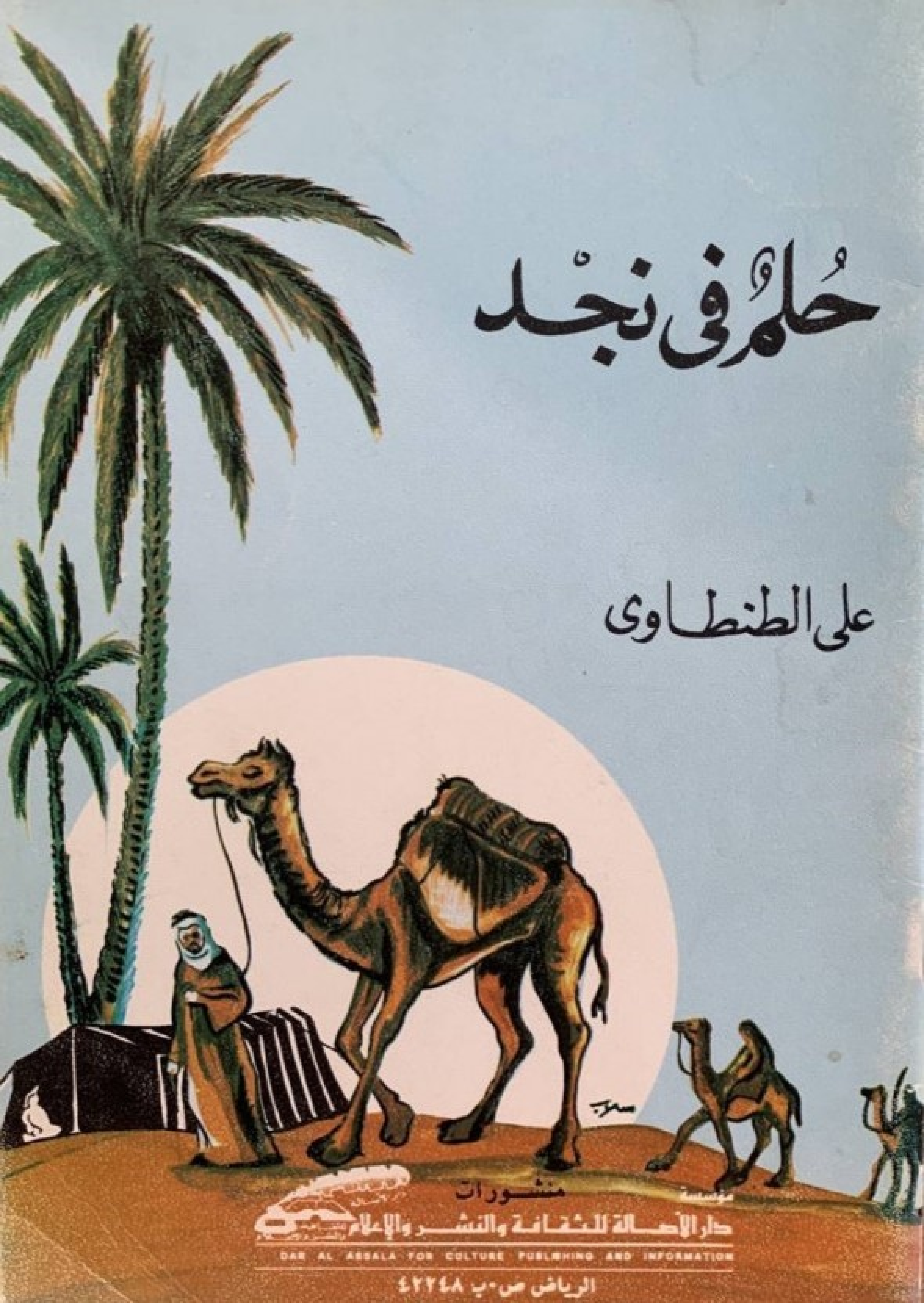


حُلمٌ في نجْد
علي الطنطاوي
منشورات
مؤسسة
دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام
DAR AL ASSALA FOR CULTURE PUBLISHING AND INFORMATION
الرياض ص.ب ٤٢٢٤٨

حُلمٌ في نجد

حلم في نجد

علي الطنطاوي

منشورات



الرياض ص.ب ٤٢٢٤٨

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام

س.ت ٢٩٨٦٤ ص.ب ٤٢٢٤٨ الرياض المملكة العربية السعودية



إشـــــارة

نجد هذه الرقعة الواسعة التي تتوسط شبه الجزيرة العربية تغنى بها الشعراء العرب الأوائل والمحدثون وأكثروا. حتى لاتجد شاعراً لم يذكرها في شعره. بل لقد ذهب الأمر ببعضهم إلى جعل نجد أماً يبثها آلامه وشجونه. الأمر الذي جعل شعرهم مليئاً بالحنين إلى نجد. حتى إن (صباها) أصبح ملازماً لذكرها. يقول الشاعر (ابن الدمينة) في داليته. والتى هي من أعذب وأمتع ماقيل في نجد.

الا ياصبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجدًا على وجد

ويقول آخر :

سقى الله نجداً والسلام على نجد
ويا حبذا نجد على القرب والبعد

فالشعر في نجد يذكي الأحاسيس ويطرب النفس بأعذب الألحان. وهذا دليل واضح على التصاق الإنسان بالأرض التي يقطنها وتكون أول ماتكتحل بها عيناه.

وقد سعدت (دار الأصالة) بموافقة أديبنا الكبير وأستاذنا الفاضل (على الطنطاوي) حينما كتبت له الدار

مستأذنة طباعة هذه الإضمامة الأدبية الرائعة (حلم في نجد) فتكرم بالإذن ولم يقتصر على ذلك وإنما شفع الإذن بالترحاب البالغ. على أنه ـ وبتواضع جم ـ ألح على أن هذه لاتشكل شيئاً ذا بال، ولاتستحق افرادها في كتيب.

إلا أن (دار الأصالة) إيماناً منها بما لنجد من مكانة خلدها الشعراء القدامى والمحدثون وما للشيخ الفاضل من مكانة في النفوس لدى العامة والخاصة. وبما يمتاز به أسلوبه الرشيق وبيانه القوي من جمال فني إضافة إلى بلاغته وعمق ثقافته وتشعب إطلاعه.

إيماناً بكل ذلك. تقدم (دار الأصالة) هذه الإضمامة الممتعة. والتي كتبها أديب العربية (علي الطنطاوي) قبل سنوات. ونترك القارىء الكريم الذي عودناه على كل جيد مع أسلوب الطنطاوي في تناول الموضوعات وبيانه الرائع في الاسترسال والذي لايستطيع القارىء أن يغادره حتى يأتي عليه من فرط الأسر البياني الذي يهيمن عليه حين يقرأ مقالات ودراسات وأبحاث الشيخ (الطنطاوي).

مؤسسة دار الأصالة

الرياض

مقدمة المؤلف

ياقوت الحموي لما ألف كتابه (معجم البلدان) حين طوّف في البلاد، ورأى أقاليم الأرض، ثم يقول: إن مواطن الجمال ثلاثة: غوطة دمشق، وشعب بوّان، ونهر الأبلّة. وهي التي تدعى اليوم بـ(أبو الخصيب) عند البصرة

وقد فتح المسلمون كلها، وسكنوها أو جازها شعراء العرب، ورأوا ما هو أجمل منها. فهل قالوا في ذلك كله ما قال الشعراء الأولون في رمال نجد، ووديان الحجاز ؟

هل كانت تلك القفار أجمل من بساتين الشام، وجنات الأندلس، ألم يكونوا أشعر، وكانوا يحسّون بالجمال أكثر، أم كانوا على التعبير عما يحسّونه أقدر ؟

ولو أننا أردنا تتبع ما قيل في نجد لجاء معنا مجلد كبير، وأنا ما عمدت إلى هذا، وما أردته، وما أقدر عليه، وإنما كنت أدوّن ما يمرّ بي من أشعار نجد، فأودعت ما اجتمع لديّ في مدة قصيرة هذه المقالة

إنها مقالة، ليست كتاباً وُضع للمقدمات، ولكن الأخ صاحب دار الأصالة أراد نشرها وحدها، رغبة منه، ومحبة لنجد وأهل نجد. وكلفني أن أكتب كلمة أقدمها بين يديها.

ووسط بيني وبينه صديق قديم أحبه، وأديب فاضل أحترمه، هو أخي الأستاذ محمد سعيد العامودي، وهل أملك أن أرد طلباً للأستاذ السعيد؟

فله وللناشر شكري، وللقراء أزكى سلامي.

مكة المكرمة: ٧/٧/١٤٠٦ علي الطنطاوي

غدوت أكتب مقالاتي في جلسة واحدة، لاأصبر على الابتداء بتسويدها، ولا على الانتهاء إلى تحريرها. ولكن هذه المقالة شغلتني ليالي وأياماً، أجمع لها الشواهد، وأتألف الشوارد، ففكرت فيمن أهديها اليه، فلم أجد أحق بها منك. لإنك ابن نجد، أبوك الشيخ عبد الله بن حسن قاضي قضائه، تشرفت بلقائه والاقتباس من معينه منذ أكثر من ثلث قرن، وجدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب معجزة نجد، ومجدد الإسلام في هذا العصر.

وما كنت يوماً ممن يتزلف إلى وزير، أو يتصاغر أمام كبير، ولكن كنت ممن يقدّر الفضل، و يكبر النبل.

فأنا أهديها إليك لفضلك ونبلك لا لأنك وزير المعارف(١).

ركبت القطار من خمس سنوات، من الرياض إلى الظهران، وكان يطوي بنا الأرض، والذهن يطوي بي

(١) كتبت هذه الإضمامة حينما كان الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ وزيراً للمعارف

العصور، أنظر من وراء البلّور وأنا في مثل نشوة المخمور أقول: هذه نجد؟ فأين صباها وأين صباياها؟

أين الصبا كان يهبّ على قلوب الشعراء، فيذيبها من الحنين شعراً يترع البيد والحضر؟ أين الصبايا اللواتي خلدن في الأدب قصائد لا تفنى وان فني العمر؟

كيف أوحت هذه التلال المقفرة، وهذه الرمال المتسعرة بما لم توح بمثله جنات الشام، وأودية لبنان، حيث الظل والماء، والأيكة الغنّاء. والسواقي تتحدر من القمم المعتمّة بالثلج، تتكسر تحت عين الشمس، كأن في كل ساقية مئة ألف حجر من غالي الالماس(١)، ثم تخطر على السفوح الكاسية بأثواب الزهر، العابقة بريّا العطر؟

كيف كسوا تلك الصحاري من أدبهم ثوب الخلود، وقالوا فيها مالم نقل مثله وعندنا هذي الجنّات.

ألأن القوم كانوا أمة البيان، كانت لهم عيون تتبع الحسن، وقلوب تهيم بالجمال، وألسنة تصف ماترى العيون وتحس القلوب، فما لشعرائنا في هذا الزمان.؟!

(١) مفرد الالماس ولامة أصلية فهو الألماس لا الماس.

وجعلت أعرض في ذهني ماقيل من الشعر في نجد، و ياما أكثر ماقيل في نجد من الشعر، وسبقت إلى ذاكرتي أبيات للشاعر الأموي، المتنبي الصغير، (الابيوردي) وكنت قد أولعت بديوانه حيناً، وكتبت عنه في (الرسالة) من أربع وثلاثين سنة، فشعرت به يتمثل لي، فكأني أراه قاعداً أمامي في القطار. ومعه صاحبان له، وكانوا يتهامسون وكأنه يحدثهما عن سوالف أيامه في نجد، ثم رأيته يبكي و يدعوهما أن يبكيا معه أيام نجد، لأنه لم يجد بعد نجد مثل نجد.

يسألهما أيعينان هذا القلب المعمود، على بكاء تلك العهود، أم ينسيان الود، و ينقضان العهد؟

و يدعو عليهما إن هما لم يفيا ـــ لا بالموت، بل بما هو شر من الموت، وهو ألا تبصر عيونهما علمي نجد، ولا ترعى ركائبهما حماه:

هلم نبك على نجد وساكنه
فلن نرى بعد نجد عيشة رغدا

ودع هذيماً،فقد طاف السلوبه
وعن قريب نراه يلتوى كمدا

اتخـذلان فـؤاداً شـيّـقـاً عـلـقـت
بـه الـصـبـابـة إن أتهـمتما حـسـدا

أم تـنـقـضـان عـهـوداً كـنـت أبرمـها
إن تـنـقـضـاهـا فـلا لـقـيّتما رشـدا

ولا رأت عـلـمـي نجـد عـيـونكـما
ولا رعـى بـالحـمـى نـضـواكما أبـدا

فرأيتهما يبكيان معه، ويسعدانه على أحزانه، حتى اذا هدأ وهدءا رأى شيئا أثاره، فنظرت فلم أرَ إلا شجيرات خضراء شديدة الاخضرار يمر عليها القطار فعرفت انها الغضى واذ به يقول، يخاطب صاحبيه:

خـليلّي هـذا ربع ليلى بذي الغضى
سـقـى الله لـيـلى والغـضى وسقـاكما

فـقـد كـنتما لـي مسـعدين على البكـا
فـما لكـما لاتـسـعـدان أخـاكما

أظـل وحـيـداً لاأرى مـن أحـبـه
وهـل بـالحمى لي من خـليـل سواكما

ولـو غـاب عني واحـد مـنكـما وهـت
قـوى الـصبر لأوهـى الـزمـان قـواكما

فـكـيـف أذود الهـمّ عني تجـلّـدا
اذا غـبتما عـن أرض نجـد كـلاكما

ومر الـقـطـار ولاح لنا على البعد جبلان، يلوحان على حواشى الأفق، تضيع أعاليها في ألق الأصيل وإذا بي أرى شيخاً جليلاً، قد دخل القطار لست أدري من أين جاء، ووراءه نفر تعلوهم مهابة ووقار، واذا بالشيخ يرنو إلى الجبلين، و يكلمهما، يسألهما و يناديهما كأنهما يسمعان النداء و يدركان السؤال، يقول:

أيـا جـبـلـي نجـد أبـيـنـا سُـقـيتما
متى زالــت الأظـعـان، يـاجـبـلان

أنـاديكـما شـوقـاً، وأعـلـم أنـه
وان طـال رجـع الـقـول لاتـعـيـان

وسكت ساعة حتى غابت الشمس وظهر الليل، فعاد يقول:

أقـول وقـد مـد الـظـلام رواقـه
وألـقـى على هـام الـربـا بجـران

نـشـدتكمـا أن تـضـمـراني هـنـيـة
لـعـلـي أرى الـنـار الق تـريـان

قـفـا صـاحـبـيَّ الـيـوم أسـال سـاعة
ولا تـرجـعـا سـمـعـي بـغير بـيـان:

هـل الـربـع بـعـد الظاعنين كعهده
وهـل راجـعٌ فـيـه عـلـيَّ زمـانـي

فـعـلـمـت أنه سيد شعراء الغزل صاحب الحجازيات، أمير الـعـشـاق الـشـريف الرضي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا قـائم إليه أحيّيه وأبثه قديم حبي له، وإكباري إياه. واني كـتـبـت عـنـه صـفـحـات هـي الـشـعـر وان لم توزن بميزان الخليل، فأنس بي وجعل يحدثني وقد سكرت من حديثه، كـأن في فيه الخمر، وفي كلامه السحر، ولحظ ذلك مني، فجعل يهزني، و يناديني فصحوت وقلت:

ــ نعــم؟
ــ قال : أما تحس نسيم الشيح من نجد؟

فـنظرت فاذا أنا قد رددت إلى حاضري، فلا أشم إلا

هواء القطار (المكيف)، فسكتّ. فلوى وجهه عني يقول:

ولقد أقول لصاحب نبّهته
فوق الرحالة والمطيّ رواقِ

مع أننا كنا في قطار (الديزل) لافي قطار الابل.

أوما شممت بذي الابارق نفحة
خلصت إلى كبد الفتى المشتاق

فجنى نسيم الشيح من نجد له
حرق الحشا وتحلّب الآماق

آها على نفحات نجد إنها
رسل الهوى وأدلة الأشواق

ثم أطرق، وجعل يحرك شفتيه يناجي ذكريات له بعيدا مداها، فقلت له مباسطاً:

ــ أين أنتم يامولانا؟ قال:

كأنا بنجد غداة الوداع
نصادي عيوناً من الدمع رمدا

وأيسر مانال منا الغليل
ألا نحس من الماء بردا

وغلبه الحنين، فتركته، فوقف إلى نافذة القطار، ينظر في سواد الليل، وأطلق نفساً طويلاً، خلتُ أضلاعه تقطعت منه، وهمس للريح بشيء، فدنوت فأصغيتُ، فاذا هو يسأل الريح ان هي لم تحمل اليه حبيبه ليشم عبقه، ان تحمل نفَسه هو إلى حبيبه، واذا هي احدى روائعه التي يقول فيها:

خذي نَفَسي ياريح من جانب الحمى
فلاقي به ليلاً نسيم ربا نجد

فان بذاك الحي إلفا عهدته
وبالرغم مني أن يطول به عهدي

ولولا تداوي القلب من ألم الجوى
بذكر تلاقينا قضيت من الوجد

ولكنه لايشفى ولو تداوى، لأن المرض يتجدد له كلما رأى متألما، أو سمع شاكياً:

واني لمجلوب ليَ الشوق كلما
تنفس شاكٍ أو تألم ذو وجدِ

ورثيت له هذا الداء، الذي يستعصي على الدواء،

وسألته ماسببه؟ فقال، ان سببه شم الشيح في نجد:

شـمـمـت بـنـجـد شـيـحـة حـاجـريـةً
فـأمـطـرتهـا دمـعـي وأفـرشتهـا خـدي

قلـت : لماذا شـمـمتهـا ياءمولانا، انما يشم مثلك الورد والفل لايشم الشيح والقيصوم؟.

قال : ذكرت بها ريا الحبيب على النوى.

قلت : وهل وجدت فيها مشابه من ريح الحبيب؟

قال : وهيهات ذا يابعد بينهما عندي.

وأقبل رجل (ديلمي) يتشبه بالسيد القرشي، يقلده في حركاتـه وانـشـاده و(يابعد بينهما) فالشيخ الشريف يصدر عن طبع، وهذا عن صناعة، وذاك نبيل وهذا يتنبل.

وليس التكحل في العين كالكحل.

ووقف يصرخ كأنه يخطب في أهل نجد:

أيـا أهـل نجـد كيـف بالـغـور بـعـدكـم
بـــكـــاء تهـــامـــيّ يهيم بمـــنـــجـــد

مـلـكتم عـزيـزاً رقـه فـتـعـطـفـوا
على مـــنـــكـــر للـــذل لم يـــتـــعـــود

اغــدراً وفــيــكــم ذمــة عــربــيــة
وبــخلاً، ومنـكـم يـستـفـاد ندى الـيـد

ثم انتقل من الصراخ إلى النحيب، وابتدره القوم يلومونه، و يأخذون عليه بكاءه و يتهمونه في حبه، فقال:

دعـونـي فـلـي ان زمت الـعـيس وقـفـة
أعـلّـمُ فيهـا الـصـخـر كـيـف يـلـينُ

وخـلـوا دموعي أو يقال، نعم، بكى
وزفــرة صـــدر أو يـــقــال حـــزيـــن

فـلـولا غـليـل الـشوق أو دمـعـة الـنوى
لمــا خـــلــقــت لــي أضـلــع وجــفـون

وفي الـركـب أنّـى أنجدَ الـركـبُ حـاجـةٌ
أُجِــلُّ اسَــمـهــا أن تُــقْــتـضىٰ وأصون

وعـــوّذنـــي عـــرّاف نجـــد بـــذكـــرهـــا
فـــأعـــلـــمـــنـــي ان الـــغـــرام جـنـون

وكانت مقطوعة من مطبوع الشعر، سما فيها فوق أفقه، وعلا فيها عن عادته فأعجبوا بها وطربوا لها ولكن رجلا غريباً قام كالخائف المذعور، وقال، اسرعوا ويحكم

واهربوا العجل. العجل.

فذعروا ـــ وقالوا: ومم الهرب؟

ـــ قال : من الوباء، ان في هذه الأرض مرضا، ينبت فيها كما ينبت العشب هو مرض الحب النابت في القلب وكم من صحيح خليّ الفؤاد، نزلها مصبحا معافي فلم يمس عليه المساء حتى عراه الداء فصارت له ليلى يهتف باسمها، أو لُبْنَى يهيم بحبها:

النجاءَ النجاءَ من أرض نجد
قبل أن يعلق الفؤاد بوجدِ

ان ذاك الثرى لينبت شوقا
في حشا ميّت اللبانات صلد

كم خليّ غدا اليه وأمسى
وهو يهذي بعلوة أو بهند

بحديث اذا سمعناه لم ند
ر بخمر فضحننا أم بشهد

أنفت من براقع الخز والقز
خدود قد برقعوها بورد

أمـقـامـا بـعـالـج والمـطـايـا
عـرض يـبـريـن بـالـظـعـائـن تخـدى

لا الحـمـىٰ بـعـدكـم مـتـاحٌ ولامـاءُ
اللـوىٰ إذ هـجـرتـمـوه بـورد

قالوا : أنتَ يا(صردر) تدعى الشوق بلا دليل، فقال:

مـاتـريـدون مـن دلائـل شـوقـي
غير هـذا الـذي أجـن وأبـدي

ورأيت اعرابيا (لايعرف اسمه أحد) يثب إليه، وقد أغضبه أن يقول شاعر أن في نجد داء يفر منه الاصحاء. واطلق يدافع عن نجد، فقال:

فـيـا حـبـذا نجـد وطـيـب تـرابـه
اذا هـضـبـتـه بـالـعـشـي هـواضـبـه

وريـح صـبـا نجـد اذا مـاتـنـسـمـت
ضحـى أو سرت جنح الـظـلام جنـائبه

وأشـهـد لاأنـسـاه مـاعـشـت سـاعـة
ومـا انجـاب لـيـل عـن نـهـار يـعـاقـبـه

ولا زال هـذا الـقـلـب مـسـكـن لوعة
بـذكـراه حتى يـتـرك المـاء شـاربـه

ومثلت إلى جنبه بدوية، عرفت معها كيف تسرق الغيد عيون الغزلان، وكيف تميس بغصن بان، وعذرت أحمد لما ادعى ان:

حسن الحضارة مجلوب بتطريةٍ
وفي البداوة حسن غير مجلوبِ

فانعقدت لمرآها الألسنة، وتعلقت بها الأنظار، وقالت كلاما طويلا ما (حفظوا) منه إلا هذا البيت:

ألام على نجد ومن يك ذا هوى
يهيّجه بعد السلوّ مرابعه

ونسي (التهامي) مُصابهُ بولده الذي أبقى ذكره في الأدب بتلك المرثية الرائية التي كانت في الشعر مثل المعجزات وتعلق بهذه الشاعرة البدوية الحسناء فناداها فداناها وتمايل العنقان، وتقارب الرأسان، واحسست أنهما يتساقيان مابقي في كأسيهما من خمر غرام قديم ــ حتى ذهبت فلاموه عليها فقال:

اهتزُّ عند تمني وصلها طربا
ورب أمنية أحلى من الظفرِ

صحيح والله إن أحلام الوصال، ألذ من الوصال

ولايعرف هذا إلاّ مَن جرَّبه:

تجني علــيَّ واجني مــن مــراشــفـهـا
ففي الجنى والجنايات انقضى عُمرى

اهدى لنا طيفها نجداً وساكنها
حتى اقتنصنا ظباء البدو في الحضر

يريد أن الظبية قد صيدت في القطار !

وكان في القوم رجل ساهم واجم، تشغل ذهنه معضلة لايعرف حلها فكلما تكلم متكلم أو أنشد منشد. جذبه من كمه وسأله عنها، عن (الحمائم الورق):

أتظن الورق في الأيك تغني؟

فإذا أخبره أنها تغني، عجب من جهله، وأعلمه أنها لاتغني (أنها تضمر حزناً مثل حزني) فإذا لم يجبه دعا عليه:

لاأراك الله نجــدا بــعــدهــا
أيهــا الحــادي بهــا ان لم تجـبـنـي

ثم يخلو إلى ذكرياته، فيناجي سوالف أيامه في الحجاز:

يـازمـان الخـيـف هـل مـن عـودة
يـسـمـح الـدهـر بها مـن بـعـد ضنٍّ

أرضـيـنـا بـثـنـيّـات اللـوى
عـن (زرود) : يـالهـا صـفـقـة غبن

سـل أراك الجـذع هـل جـادت بـه
مـزنـة روّت ثـراهـا مـثـل جـفني

وأحـاديـث الـغـضـى، هـل علـمـت
انهـا تـمـلـك قـلـبـي قـبـل أذنـي

وأهـاجـته الذكرى، فصاح، والتبط به، فقال القوم قد جن، (ابن سنان الخفاجي) قد جن فقال ــ ابن الخياط ــ أنا أداويه، لأني أعرف مرضه، انه ماأطار لبه إلا صبا نجد، واني مداويه بالتي كانت هي الداء، فن يجرّعه الدواء؟

فقام اثنـان من الشعراء. فقال لهما، ان الدواء خطر واني أخاف أن يشفيه ويمرضكما.

قالا : ماعليك منا فهاته، فقال:

خـذا مـن صـبـا نجـد أمـانـاً لـقـلـبه
فـقـد كـاد ريّـاهـا يـطير بـلـبـه

وإيـــاكما ذاك الـــنـــسيم فـــإنـــه
اذا هــبّ كـان الـوجـد أيسر خـطـبـه

فقالا ــ وما الوجد؟ ومتى كان الوجد خطبا؟ فرثى لهما من جهلهما وقال لهما:

خـلـيـلـيَّ لـو أحـبـبتما لـعـلـمتما
محـلّ الهـوى مـن مـغرم القـلـب صبه

قال له رجل: أنا لاأعرف ماالحب، فقل لي كيف أحب؟

قال:

تـذكـر فـذو الذكرى يشوق وذو الهوى
يـتـوق، ومـن يـعلق به الحـب يـصبه

غـرام على يـأس الهـوى ورجـائـه
وشـوق على بـعـد المـزار وقـربـه

وفي الـركب مطويّ الضلوع على هوى
مـتـى يـدْعه داعـي الـغـرام يـلـبّـه

ولما هب صبا نجد تداوى به الشاعر المصروع، ولكن صرع الشاعر العاشق ــ ابن الدمينة ــ وراح يسائل

الصبا:

الا يـاصـبـا نجـد متى هـجـت من نجـد
لـقـد زادني مـسـراك وجـداً على وجـدِ

ثم تراجع واستحيى وقال لنفسه يؤنبها:

أأن هـتـفـت ورقـاء في رونـق الـضـحـى
على غُـصـن غـضّ الـنـبـات من الـرنـدِ

بـكـيـت كما يـبـكـي الوليـد ولم تـكـن
جـلـيـداً وأبـديـت الـذي لم تـكـن تـبـدي

فصاحوا به: لماذا التشوق إلى نجد وأنت في نجد، أفما يشفيك القرب، من لوعة الحب قال:

وقـد زعـمـوا أن المحـب إذا دنـا
يمـلّ وأن الـبـعـد يـشـفـي من الـوجـد

بـكـل تـداويـنـا فـلـم يُـشـفَ مـابنـا
على ان قـرب الـدار خير مـن الـبـعـد

على ان قـرب الـدار لـيـس بـنـافـع
اذا كـان مـن تهـواه لـيـس بـذي ود

وقام الارجاني: يسأل: أجاء النسيم، أتقولون إنه جاء ركب النسيم، انى:

إذا ماسرى ركب النسيم اعترضته
لأخبار من أحببته متنسما

فيا ليل نجد ماصباحك عائدا
ولكنّ من بالغور وهناً تبسَّما

فصاح به ــ الطغرائي ــ:

أجدّك ماتنفك بالغور ناشدا
فؤادا بنجد يالقلبك من نجد

تمادى غرام ليس يجري إلى مدى
وفرط سقام لايقيم على حد

أقول لأنضاء الغرام عشية
ببصرى وانضاء المطي بنا تخذي

اقيموا صدور العيس واستخبروا الصبا
عن الحي بالجرعاء: مافعلوا بعدي

وماطاب نشر الريح الا وعندها
أخابير من نجد وعن ساكني نجد

فصاحوا به : كلنا عاشق فلم تخصّ بالذكر نفسك؟

قال:

نـظـنـون حالي في الهوى مثل حالكم
وهيهـات. اني في الهـوى أمـة وحـدي

قال ابن الخياط : أما أنا.

فـلـسـت على وجـدي بـأول عـاشـق
أصـابـت سـهـام الحـب حـبـة قـلـبـه

وكـان في الـقـطـار (اعـرابـي) لايـزال يـتـلـفـت إلـى الـوراء... يحـاول أن يخترق بنظره حجب الليل، فقالوا له: مالك وما الذي تحاول أن تراه؟ فقال:

أكـــرر طـــرفـــي نحـــو نجـــد وانـــنـــي
الـيــه وان لم يــدرك الـطـرف انـظـرُ

حـــنـــيـــنـــا إلـــى أرض كـــأن تـــرابهـا
اذا أمـــطـــرت، عـــود ومـــســـك وعـــنـبر

قالوا له : ولكنك لا ترجع من النظرة بطائل فقد أسودّ

الليل وغابت المشاهد. فقال:

وما نظري من نحو نجد بنافع
أجل لاولكني ــ على ذاك ــ أنظر

وطال السفر، ونام في المقاعد أكثر الشعراء، وبقى واحد قاعدا لا ينام فدنوت فقلت له: مالك لاتهجع كما هجعوا.

فأخبرني أنه يغار على حبيبته، يخاف اذا نام أن يزوره طيفها، فيراه من معه من أهل نجد:

واشفق من طيف الخيال اذا سرى
مخافة أن يدري به ساكنو نجد

قلت: ومابلغ من حبك اياها؟

فزفر زفرة زلزلت قلبه: واعرض عني كأنه نسيني وجعل يخاطبها يقول:

ومن فرط اشفاقي عليك يسرني
سلوّك عني خوف أن تجدي وجدي

وأرضى بأن تفديك نفسي من الردى
ولكنني أخشى بكاءك من بعدي

قلت له: هذا عظيم، هذا الذي أراده الشعراء، فأخطأه أكثرهم. فحاموا ولم يلجوا ومشوا ولم يصلوا. قال:

مــذاهــب شتى للــمــحــبين في الهــوى
ولي مــذهــب فيهــم أقــول بــه وحــدي

وكان الشريف متيقظا يسمع، فضحك.

ــ فقلت : وما يضحك مولانا؟

ــ قال : كل يدعى أن له مذهبا في الهوى وأنه إمام في شرعة الحب.

ومــاشــرب الــعــشــاق الا بــقــيــتــي
ومــا وردوا في الحــب الاّ على وردي

وشغلنا عما كنا فيه (اعرابي) غيره، رأيناه من وراء الزجاج، يعدو جملا مهريا يخب به في الرمل، يحاول أن يسابق القطار. فعلمنا أنه ضالّ يسألنا عن الطريق، وأصغينا فسمعناه ينادي:

أصاح،ألاهـل مـن سـبـيـل إلـى نجد
وريـح الخزامـى غـضـة مـن ثـرى جـعـد

وهـل لـلـيـالـيـنـا بـذي الـرمـث رجـعـة
فـنـشـفـي جـوى الاحزان من لاعج الوجد

فتأملته فعرفته واذا به (الطرماح) فحييّته وقلت:

ــ أما الطريق إلى نجد فهذه ياصديقي نجد، هذي روابيها وهذا نسيمها، وأما الليالي الماضيات فهيهات أن تجد السبيل إلى أن تعود إليها، أو تعود بها اليك، لايرجع الماضى ولايكشف المستقبل فاقنع بما أنت فيه فإن:

مامضى فات والمؤمل غيب
ولك الساعة التي أنت فيها

قال: وكأنه يقول لنفسه: لا والله مافات ولكن دوّن في كتاب لايدع صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها. فنسأل الله العفو عما مضى، والستر فيما هو آت.

ولوى عنق بعيره وولى وعيناه تنديان من الدمع.

وسمعت من يذكر ابن نباته، فقلت أي الثلاثة هو؟ الشاعر أم الخطيب. أم المتأخر عنهما في زمانه وفي لسانه؟.

قالوا: هذا ابن نباته الكبير. كان شاعراً ولكن قربهُ من صاحبكم المتنبي كسف نوره كما كسف أنوار جماعة من الفحول.

فنظرت فاذا رجل عليه هيبة، ينظر بعيدا ثم تبرق عيناه و يفترّ ثغره عن ابتسامة و يقول: لقد أقبلوا.

قالوا : من هم. قال: وفد الشعراء،

حـبـذا الـقـادمـون مـن طـرف الحـ
ـزن ونجـد منهـم على مـيـعـاد..

تـتـلـقـاهـم بـنشر الخـزامـى
نـفـحـات تـشـفـى عـلـيـل الـفـؤاد

وامتلأ المكان بالوافدين. واختلطت الأصوات وسمعت اسم ــ المجنون ــ

وكـل الـنـاس مجـنـون ولـكـن
على قـدر الهـوى اخـتـلـف الجـنـون

فكان ابن الملوح سيد المجانين، لأنه كان سيد العشاق ثم ميزت صوته يقول:

الا لـيـت شـعـري من عوارضَتيْ قُبا
لـطـول الـتـنـائى هل تـغيرتا بعدي

وهـل جـارتـانـا بالبتيل إلى الحـمى
على عـهـدنـا أم لم تـدوما على الـعـهـد

وعـن عُـلْـويـات للـريـاح اذا جـرت
بـريـح الخـزامـى، هـل تهب إلـى نجـد

وعـن اقـحـوان الـرمـل مـاهـو فـاعـل
اذا هـو أمـسـى لـيـلـة بـثـرى جـعـد

فقالوا : مجنون يخلط بين نجد وقبا ومأأبعد قبا من نجد.
فزجرهم عنه ـ التهامي ـ وقال له:

اسـفـح بـنـجـد مـاء عـيـنـك انهـا
لـلـعـامـريـة كـل أرض دارُ

وعاد التهامي يقول لنفسه يذكر موقف وداع صاحباته وضما ورشفا...

لم ادر اذ ودعـنـي أمـقـبّـل
لحـلاوة في الـريـق أم مـشـتـارُ

ألـبـسـني سـربـال ضـم مـالـه
الا رؤوس نهـودهـا أزرار

قالوا: نسأل الله السلامة... من هذه الأزرار
وعزى نفسه الطغرائى ان هذا يصف الوداع الذى مضى وهو يأمل اللقاء الذي يأتي حين تستقر به الاقامة في نجد.

يـاحـبـذا نجـد واعـراق الـثـرى
لـدن وأنـفـاس الـربـيـع رفـاقُ

فهواؤه خصر النسيم وتربه
حالي الاديم وماؤه رقراق

ولساكنيه ان استقر بنا النوى
تشفي النفوس وتمسك الارماق

واختلطت الأصوات ولم أعد أتبين الا أبياتا من مقطوعات، كلها في نجد. هذا أبو تمام أستاذ الشعراء جميعا – لااستثني المتنبي – يقول:

وانجدتمُ من بعد اتهام داركم
فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

وهذا شيخ الشعراء الاسلاميين جرير يقول:

أحب ثرى نجد وفي الغور حاجة
فغار الهوى ياعبد قيس وانجدا

وهذا يقول:

سقى الله نجدا والسلام على نجد
وياحبذا نجد على القرب والبعد

وهذا هو الطرمّاح يهتف بنجد وينسى انه في نجد:

أصاح ألا هل من سبيل إلى نجد
وريح الخزامي غضة من ثرى جعد

وهـل للـيـالـيـنـا بذي الـرمـث مـرجـع
فـيـشـفـي جـوى الأحزان من لاعج الوجد

وكـان في القـوم رجـل جـاء مـن بـعـيد بعيد من وراء البـحر العريض ليقوم في مهرجان نجد فيلقى فيه ـ كلمة الاندلس ـ قال ابن خفاجة:

يــا لــيــل وجــد يــنــجــد
أمــا لــطــيــفــك مــســرى

ومــا لــدمــعــي طــلــيــقــا
وانجــم الجــو اســرى

وقــد طــمــى بحــر لــيــل
لم يــعــقــب المــد جــزرا

لايــعبر الــطــرف فــيــه
غير المجــرة جــســرا

وتـغنى بهـا بـنـفـحـة مـن ألحـان زر يـاب فـأشجى من حضر.. وذكـر كـلٌّ من أيـامـه مـاغبر وقـام (سـبـط ابن الـتـعـاو يـذي). يـبـكـي و يسأل رفيقيه أن يستعيرا عينين يبكيان بها.

ونسى قول عبقري الغزل اذ يقول (أرأيت عينا للدموع تعار).

قال: يارفيقي هل لذاهب أيام تقضت حميدة من مرد.

انجداني بوقفة في مغاني
الحيّ أن جزتما بأعلام نجدِ

وابكياها بمقلتي واسألاها
من سقاها ماء المدامع بعدي

فقلت له: ويحك، تسرق شعر مولانا الشريف، هذا البيت شريفي فأعده لصاحبه ولم يرد علي، ولم يرد صاحباه عليه، وكان القطار قد تباطأ في سفره ودنا من غايته، فهما بالنزول فوثب الصمة بن عبد الله القشيري يمسك بهما ويقول لهما: قفا اتنزلان لاتودعان نجداً، ان نجدا يستحق منكما أكثر من الوداع.

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى
وقلَّ لنجد عندنا أن يودَّعا

بنفسي تلك الأرض ماأطيب الربا
وما أحسن المصطاف والمتربعا

وأذكـــر أيــام الحـــمـــى ثم انـــثـــنـــي
على كـــبـــدي مـــن خـــشيـــة أن تـــصـدّعا

وسمعنا من بعيد صوتا حزينا يتغني (أغنية الوداع).

تـــــزوّدْ مـــــن شـــــميم عـــــرار نجـــــد
فـــــا بـــــعـــــد الـــعـــشـــيـــة مـــن عـــرارِ

فقال أحد الحاضرين منزل العامرية بشرقي نجد وما بلغناها، فصاح المجنون:

لاتـــــقـــــل دارهـــــا بـــــشـــــرقـــــي نجـــــد
كـــــل نجـــــد لـــــلـــــعـــــامـــــريـــــة دار

منشـورات

مؤسسة
دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام
DAR AL ASSALA FOR CULTURE PUBLISHING AND INFORMATION

الرياض ص.ب ٤٢٢٤٨

١ ـ من تاريخنا ـ الطبعة الثالثة ـ محمد سعيد العامودي.

٢ ـ الشعر في البلاد السعودية في الغابر والحاضر ـ الطبعة الأولى ـ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري .

٣ ـ الدين ضرورة حياة الإنسان ـ الطبعة الأولى ـ عبد الكريم الخطيب .

٤ ـ منهج الإسلام في تربية الجندي المسلم ـ الطبعة الأولى ـ دكتور محمد إبراهيم نصر .

٥ ـ الصنوبري . شاعر الطبيعة في العصر العباسي ـ الطبعة الأولى ـ صالح عبد الله التويجري.

٦ ـ الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية ١٢٠٠هـ ـ ١٣٥١هـ، الطبعة الأولى ـ عبد الله محمد أبو داهش.

٧ ـ شعراء ينبع وبنو ضمره ـ الطبعة الأولى ـ عبد الكريم محمود الخطيب.

٨ ـ موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري ـ الطبعة الأولى ـ دكتور زهدي صبري الخواجا.

٩ ـ حلم في نجد ـ الطبعة الأولى ـ علي الطنطاوي.

مطابع الفرزدق التجارية
تلفون ٤٧٨٨٥١٠ الملز